

الصامت

"ليس بالإستشهاد وحده تحرّر لبنان، ولا
بالإتحاد وحده تغلب لبنان. بل بكليهما معاً تحرّر
وانتصر".

طَبَعَ الصمت القائد وجيشه. قبل إنه الصامت، والجيش الصامت الأكبر. أثر الإبتعاد به عن السياسيين والعلاقة المباشرة بالمواطنين. بين حدّي الصمت والإبتعاد، نأى اللواء فؤاد شهاب بالمؤسسة العسكرية بعيداً من كل ما كان يدور في الحياة السياسية. لا يتدخّل فيها لأن أحداً من المسؤولين لا يسأله رأيه. ولا يترك للسياسيين التدخّل في شؤون الجيش، والتأثير في انضباطه وقوانينه وأنظمتها الداخلية، لأن ليس إلا للسلطات الرسمية المعنية مساءلة القائد وحده. على مرّ سني وجوده على رأس القيادة، لم يُعط الجيش دوراً خارج نطاق أوامر السلطة السياسية له بتنفيذ مهمات حفظ الأمن والدفاع عن الحدود. أسراره في ثكنه. كانت تلك حال الترقّيات والمناقلات والمكافآت والعقوبات والتطويع والدورات الدراسية في الداخل والخارج. لا يُؤتى على ذكرها في الجرائد، ولا يُعرف للضباط الكبار مناصب يشغلونها في الجيش تتردّد على ألسنة العامة وفي الصحف، ما خلا قائده ورئيس الأركان العامة. في بساطة، لا مكان في الجيش للتشهير ورواية الأخبار والقصص والثرثرة السياسية والإنتقاد والذمّ والبحث عن فضائح وخلافات وعن سبّ صحافي.

لم تكن المؤسسة العسكرية أداة جدل سياسي بين الحكومة ومجلس النواب، وبين النواب والزعماء أنفسهم. ولا انخرط الضباط في علاقات اجتماعية عامة. دونهم وحياتهم المدنية البرّة. كذلك كانت توجيهات قائد الجيش للأفواج والقطع وسائر الأسلحة والعسكريين عندما كان يتقدّم دورياً. استمرت بين دفتي الأنظمة الداخلية التي تمنع تداولها خارج مكانها الموصد الأبواب.

كان ذلك مبرراً لئلا يسمع اللبنانيون صوت قائد جيشهم ما بين عامي 1945 و1958، ولا يرون صورة له في الصحف أو في احتفالات رسمية، ما خلا وجوده على رأس الأفواج والقطع المشاركة في العرض العسكري التقليدي في ذكرى الإستقلال، أو على المنصة الرسمية، أو إلى جانب رئيس الجمهورية عندما كان يقف الضباط المتخرجين في المدرسة الحربية سيوفهم.

لم يكن من السهل سير نظرة فؤاد شهاب إلى دور الجيش إلا عندما أضحى رئيساً للجمهورية. ظلّ مدرسته الدائمة التي يستلهم منها تجربته، فيجهر بتعلّقه بها في كل مناسبة كان يتوجّه فيها إلى الضباط المتخرجين في المدرسة الحربية. يقول لهم: "كم من قضية واجهتها، ومعضلة عالجتها، وطريق تلمستها، كان مرشدي فيها ذلك الزاد الذي تزوّد به مدرسة الجيش أبناءها"¹.

في رئاسة الجمهورية خرج دوره من الظلّ والصمت إلى العلن والمكاشفة، وبات عليه مخاطبة العسكريين ثلاث مرات في السنة في شهرين: في ذكرى تقليد الضباط المتخرجين في المدرسة الحربية سيوفهم في أيلول، وعشية ذكرى الإستقلال ثم في يوم إحيائها في تشرين الثاني. عنت المناسبات الثلاث هذه الجيش بالذات. أولاًها أنها تمّده بقيادة جدد سيدخلون معترك حماية الوطن، والأخريان مسؤوليته المباشرة عن حماية الإستقلال والسيادة والإستقرار. اعتاد قائد الجيش، في 21 تشرين الثاني من كل سنة، عشية ذكرى الإستقلال، عقد لقاء في النادي العسكري المركزي مع الضباط الكبار في الأركان والقطع والوحدات في بيروت خصوصاً، يشارك فيه رئيس الجمهورية الذي يلقي خطاباً. بعد انتخابه رئيساً، ثابر فؤاد شهاب على هذا التقليد الذي كان يسبق العرض العسكري للجيش في الغداة.

مذ أقسم اليمين الدستورية رئيساً للجمهورية في 23 أيلول 1958، رسم الحدود الفاصلة بين قيادة الجيش "حيث الصمت رفيق الواجب"، وبين السياسة "حيث الكلام هو السيد"، فإذا به يجد الإنتقال

¹ - الرئيس فؤاد شهاب، مجموعة خطب، خطاب 21 تشرين الثاني 1963، ص 127.

من ذلك الموقع إلى هذا "مسافة لعلها أصعب ما كتب لي أن أجتازه منذ سلكت طريق الجندية"². بيد أنه يحدّد للجيش مذهباً يقع بين ضفتي الفضائل والدور الوطني. أحدهما يُستكمل بالآخر. يدرجهما الرئيس في سياق "ضمان استمرار العمل الوطني العظيم الذي لا يقوم على إعطاء الوطن قوته العسكرية فحسب، بل على إعطائه كذلك نواة حيّة نشيطة للإنصهار الوطني الذي هو سياجه وحماه الأقوى"³. هي إذن المهمة المزدوجة، النادرة في اعتقاده في أدوار الجيوش الأخرى في العالم القريب والبعيد: الذود عن الوطن وصون وحدته الوطنية. بل لم يخلُ خطاب توجّه به فؤاد شهاب إلى الجنود من غير إقران دور الجيش في الدفاع عن الوطن بمسؤوليته عن حماية الوحدة الوطنية. دفعه ذلك إلى القول بأن "ليس بالإستشهاد وحده تحرّر لبنان، ولا بالإتحاد وحده تغلب لبنان. بل بكليهما معاً تحرّر وانتصر"⁴.

فالرئيس، خلافاً لسلفيه، أضحي في منصب لم يجعله ينسى لحظة أنه كان قائد الجيش ومؤسسه. لم يكن له، في قرارة نفسه، إلا التصرّف على أنه لا يزال كذلك. القائد الظلّ الذي يجانب القائد المعين وهو اللواء عادل شهاب. ولأنه حالّ في السنوات الـ12 المنصرمة دون تدخّل السياسيين في شؤون المؤسسة العسكرية، أدرك الرئيس أنه، وحده، قادر على مواجهة واقع تتجاذبه مشكلتان: ابتهاج العسكريين بأن قائد الجيش أصبح رئيساً للجمهورية كأنما الجيش هو الذي وصل إلى الحكم وتسلم السلطة، وخشية السياسيين من أن يفضي انتخاب قائد الجيش رئيساً إلى تنامي نزوع العسكريين إلى التدخّل في شؤونهم وفي آلة المؤسسات الدستورية ما داموا سيطمحوون إلى أن يكون شركاء في قرارها وجزءاً من الحكم نفسه.

حملت هاتان المشكلتان الرئيس مراراً، عندما كان يخاطب العسكريين والسياسيين في آن واحد، على تأكيد التلازم الحتمي، المتكامل وغير المتعارض، بين الإستقلال الذي يحميه الجنود، والديموقراطية التي يصنعها السياسيون.

كلاهما لصيق الآخر. في السنة الأخيرة من ولايته رئيساً للجمهورية، خاطب العسكريين وهو يخاطب السياسيين واللبنانيين جميعاً في آن معاً، متحدّثاً عن مسؤولية الإستقلال، وقد عدّه "حقيقة لم تكن كسباً بغير مشقة، بل نتيجة جهود وطنية صادقة بذلها الشعب بوعي وسخاء. ولولا شجاعة الجسد والفكر التي واجهتم بها كل ما تعاقب على وطنكم من أحداث، وقد كان بعضها دامياً قاسياً، مفرّقاً ممزّقاً، ولولا المواقف الحكيمة المملوءة برباطة الجأش التي اتخذتموها في أشدّ الظروف حرجاً وإيلاماً متجاوبين بها مع وطنية أصيلة في هذا الشعب، وحرص شديد على وحدة الوطن ومصالحته، لما كنا ننعم اليوم بهذا الإتحاد الوطني الشامل العميق. ولما كنا نلمس هذا الإيمان الراسخ عند اللبنانيين جميعاً بغد لبنان ومصيره"⁵.

لم يكن يتردّد في لفت العسكريين إلى أنهم "في كل مرة كنتم تنتقدون إلى جانب إنقاذ الكيان والسيادة، تلك المؤسسة الغالية على اللبنانيين، ألا وهي نظامهم الديموقراطي. فجيش لبنان، كشعب لبنان، كان ولا يزال شديد الحرص على الديموقراطية، منتشرّباً روحها، متمسكاً بها، معتبراً إياها من قواعد الحياة للبنان، ومن أسباب تألقه واحترامه وتقديمه وازدهاره (...). ويعرف أن الديموقراطية في لبنان شرط من شروط بقائه، لأنها صورة الوحدة الوطنية والتعبير العملي الحيّ عنها"⁶. كان قد قارب موقفه من الديموقراطية بإبراز علاقة متجاذبة بين المؤسسات السياسية والجيش. وهو، إذ يرى أن "من حق الشعب، وأنتم منه وله، على من يضع في يدهم مقاليد أمورهم أن يحافظوا على

² - المصدر نفسه، خطاب 23 أيلول 1958، ص 10.

³ - المصدر نفسه، خطاب 16 أيلول 1960، ص 61.

⁴ - المصدر نفسه، خطاب 13 أيلول 1963، ص 117.

⁵ - المصدر نفسه، خطاب 21 تشرين الثاني 1963، ص 129.

⁶ - المصدر نفسه، خطاب 14 أيلول 1962، ص 96.

الديموقراطية اللبنانية، ويثبتوا أركانها، ويعلموا بناءها، ويمنحوها كل ما يحميها ويصونها، وأن يجعلوها دائماً تحقق غايتها في إنهاض الوطن، وإسعاد أبنائه تحت راية العلم والعدل والأخلاق"، شدد على أن للديموقراطية بدورها مهمة موازية حيال الجيش، هي "أن توفر له الأسباب التي تمكنه من أن يكون قوياً، قادراً على مواجهة كل طارئ خارجي، في وضع عام سليم، لا يُشغل فيه بغير مهماته الأصلية"⁷.

لاحظ فؤاد شهاب أن وظيفة الجيش، شأن كل جيش وطني، حماية الوطن وحدوده. لكنه بين للضباط والعسكريين، وهو يخاطبهم، خصائص أخرى حسيبها في صلب تلك المهمة:

أولها، أن الجيش صورة مطابقة للمجتمعين الإنساني والسياسي اللذين ينتظم فيهما اللبنانيون، فيكرسون تعاونهم ومقاربة عقائدهم وممارسة حرياتهم وخلافاتهم وتناقضاتهم ومصالحاتهم. كذلك فإن المؤسسة العسكرية التي يتعين عليها أن تتعلم كيف تحارب - وهو السبب الرئيسي لوجودها - تمثل "بوثة ياتي لينصهر فيها كل عام الألوف من الشبان اللبنانيين. وهنا تفعل روح الجيش فعلها في نفوس هؤلاء المواطنين بما تنفحهم من فضائل الوطنية العالية، ومن شعور الأخوة في الحياة وأمام الأخطار (...). إن بلداً كلبان تعددت مذاهبه وطوائفه وتضافت عوامل عدة في قرون مديدة على زرع بذور التفرقة في أرضه، وبين أهله، يحتاج أول ما يحتاج إلى ما يجمع بين شتات أبنائه، ويؤلف ما بين قلوبهم، ويحلّ المحبة في نفوسهم، ويوحد صفوفهم وجهودهم لخيرهم وخير وطنهم. وليس كالجيش في لبنان مؤسسة تؤدي هذه الرسالة، وتقوم بهذه المهمة الخطيرة"⁸.

ثانيتها، أن الجندية ليست مهنة ووسيلة عمل وارتزاق وبحثاً عن مظلة تقي الفاقة والعوز فحسب، بل انتظام في مجتمع جديد يحض على التخلي عن الأنانية، ويشجع على نكران الذات في سبيل الآخرين. هو "الإستعداد الإختياري الواعي للذهاب في القيام بالواجب إلى أقصى حدود نكران الذات، إلى حد التضحية بالذات في خدمة الوطن، وإلى أبعد حدود التضحية. إلى حد التضحية بالحياة"⁹.

ثالثتها، أن الجندية فضائل شأن سائر مناحي الحياة. تستمد قوتها من القيم، وتدافع عنها من أجل الوطن كما من أجل الإنسان. مهنة تتوسل القوة دفاعاً عن العدالة والحق. ولأنها تتأثر بالقيم والأخلاق ترتكز على "تعزيز ما في قلوبكم من روح الإلفة والتأخي، فتكونون صفاً واحداً تدفعكم عقيدة واحدة لأداء واجباتكم المقدسة، وتثابرون على الدروس والمطالعة فإن فيها غذاء لمعارفكم وتوسيعاً لآفاقكم"¹⁰. يطلب من العسكريين التحلي بالعلم والمعرفة والإنضباط، وبمزايا جوهرها التعالي والتجرد والخلق والإيمان بالله والمثل العليا والولاء المطلق للوطن، وكذلك فنون الحرب والقتال. وليست هذه فقط ما كان يلح عليه بل يضيف على المعرفة العسكرية للجيش ما يسميه "آداباً في الوطنية تقوم على الرعاية الدقيقة لحقوق الوطن والمواطن، وعلى الشعور الصادق بمسؤولية الفرد تجاه المجتمع. ولقد رسخت في هذا الجيش الفتى مناقب العسكرية العريقة. فأصبح الإنضباط واحترام القانون وإنكار الذات، لا من تعاليمه فحسب، بل من تقاليد أيضاً"¹¹.

في عُرْفه أن المناقب والآداب العسكرية ملازمة للقيم والمعايير الاجتماعية، وفي الوقت نفسه للثقافة العسكرية بكل عناصر الكفاية والتدريب والتأهيل والقدرات "لأن سير العلم اليوم يجعل الفنون العسكرية مرتبطة به أكثر فأكثر، حتى ليكاد معظم التقدم فيه أن يكون منبثقاً من الحاجات العسكرية. فلا مجال مع هذا التقدم العلمي لجندي أن يتوقف عن الدرس، بل يظلّ طلب المعرفة بعد التخرج ضرورة قائمة دائمة لكل من ينتمي إلى الجندية ويتصل بالحياة العسكرية"¹². لم تكن دعوته،

7 - المصدر نفسه، خطاب الأول من أيلول 1964، ص 148.

8 - المصدر نفسه، خطاب 21 تشرين الثاني 1960، ص 75 و76.

9 - المصدر نفسه، خطاب 13 أيلول 1963، ص 116.

10 - المصدر نفسه، خطاب 30 أيلول 1958، ص 16 و17.

11 - المصدر نفسه، خطاب 14 أيلول 1962، ص 94.

12 - المصدر نفسه، خطاب 13 أيلول 1963، ص 118.

رابعتها، تكريس الجيش الدور الذي اضطلع به في "ثورة 1958"، بحرصه على "سلامة الكيان والمحافظة على معاني الدولة واستمرار الحياة على أساس الديمقراطية والحرية والمحبة"¹⁴. ولأن الضباط والجنود "لا يحمون الحدود ويمثلون القوة فقط، وإنما لأنهم يجسّمون في الأمة المعاني الرفيعة والقيم العليا التي بها تكبر الأوطان مهما صغرت، ويصان بها تراث الأمة الروحي والخلقي جيلاً بعد جيل"، وجد فيهم "حفظة القوة الوطنية الحقيقية المتمثلة في رابطة الأخوة الصحيحة التي تشدّ اللبنانيين بعضهم إلى بعض، وتجعل منهم شعباً واحداً، وبنياً واحداً مرصوصاً". كان الدرس الأبلغ من "ثورة 1958" خوض لبنان معركة الإستقلال مجدداً. بعد أولى عام 1943، دهمته معركة استقلال ثانية قاسية "انتصر فيها انتصاراً رائعاً بما اجتمع له في صفوفكم التي تنتظم في حبّ لبنان صفاً واحداً، وقلوبكم التي تجتمع في هواه قلباً كبيراً. فقد اطمأن إليكم الشعب الذي عرف منذ تلك المعركة، وربما كما لم يعرف يوماً، أي قوة أنتم وأي فضائل تمثلون. وقد ازدّدت حتى أنا نفسي اطمئناناً إلى غد هذا الوطن أكثر من اطمئناني إلى حاضره. فالوطن الذي تسود فيه مثل روحكم لا يموت"¹⁵.

خامستها، أن للمؤسسة العسكرية دور استكمال عمل سائر المؤسسات الرسمية، كل في نطاقه. فليس الدفاع عن الحدود هو المهمة الوحيدة للجيش، ولا ضمان الوحدة الوطنية وحده، وإنما أيضاً تسهيل سبل الوصول إلى الإزدهار والرخاء والنشاط الإقتصادي والاجتماعي والتطور والطمأنينة والإستقرار داخل الحدود "فجعل من لبنانكم موطناً للعيش الكريم والجهد المثمر والتقدّم الوطيد (...). يعرف اللبنانيون يدكم وفعلكم، ويلمسون أثر إيمانكم بالله وبلبنان الذي ساهم في تهيئة المناخ الصالح للإستقرار والإزدهار، والجو الملائم للإنماء والتقدّم، والمضي في سياسة التخطيط، وتحقيق العدالة الاجتماعية بما يكفل لهذا الوطن غداً مشرقاً بعيداً من المخاطر والتقلبات"¹⁶.

- 2 -

مذ بدأ بناء الجيش حدّد قائده دوره: حماية الحدود اللبنانية المعترف بها دولياً في نطاق لبنان الكبير ومن ثمّ الجمهورية اللبنانية، ومؤازرة رجال الدرك والأمن العام لحفظ الأمن في الداخل عندما يقتضي ذلك. لكنه كان يتدخّل مباشرة إذا شعر بأن النظام والأمن الوطني في خطر. حملته ذلك على مواجهة عصيان مسلح للحزب السوري القومي الاجتماعي بقيادة زعيمه أنطون سعادة في 4 تموز

¹³ - المصدر نفسه، ص 117 و118.

¹⁴ - المصدر نفسه، خطاب 23 أيلول 1958، ص 15.

¹⁵ - المصدر نفسه، خطاب 21 تشرين الثاني 1959، ص 34 و35.

¹⁶ - المصدر نفسه، خطاب 21 تشرين الثاني 1963، ص 128.

1949، في أكثر من منطقة، هدّد بسقوط حكم الشيخ بشارة. كانت تلك أولى المهمات العسكرية للجيش في الداخل. هاجم مسلحون قوميون مخافر الدرك واستولوا على أسلحتها في بيروت والمتنين الأعلى والشمالي والبقاع، بالتزامن مع أمر مماثل كان وجهه زعيم الحزب في 3 تموز إلى قوميين منخرطين في الجيش والدرك والشرطة للانفصال عن قياداتهم وتلقي الأوامر من الحزب، تمهيداً لإعلان "الثورة القومية الاجتماعية". سرعان ما أطلقها في اليوم التالي. شارك الجيش في قمع العصيان.

وضع اللواء فؤاد شهاب، بداية، قواعد ثلاثاً للإنضواء في الجيش:

- تشجيع الضباط على إدخال أبنائهم إلى المدرسة الحربية، ومنحهم أفضلية انسجاماً مع تقاليد مماثلة عرفتها جيوش أوروبا لقرون خلت، يقتضي تكريسها سابقاً في الجيش اللبناني أيضاً. من الآباء إلى الأبناء.

- حضّ أبناء العائلات العريقة على الإنتساب إليه، مساهمة في بناء الدولة اللبنانية كون هذه العائلات إحدى ركائزها، الخارجة من جذور صلبة في التمسك بالهوية الوطنية والانتماء إلى الكيان. كان قد لاحظ أن لبنان مجموعة طوائف وزعماء، أكثر منه شعباً متفاعلاً مع دولته انطلاقاً من إيمانه بمواطنيته. وجد أن العائلات هذه، بردود فعلها وتقاطع مصالحها وقدراتها ونفوذها ونشاطاتها، هي التي تحكم الدولة. وهي عقلها.

- المتفوقون والأكفاء، والذين كان يرى فيهم مواصفات الذكاء والنجاح والطموح من الطوائف والمذاهب والمناطق اللبنانية المختلفة¹⁷.

تطلب بناء الجيش، في رأيه، مقاييس ثلاثة: إرساء تقاليد عسكرية وترسيخها، استيعاب واقع بنية المجتمع اللبناني، الأهلية والكفاية.

بتؤدة وصبر، سعى فؤاد شهاب إلى بناء الجيش الفتّي تنظيمياً وتسليحاً وتخطيطاً. وأزّن بين الإدارة والتقنية والتدريب. تحت عبء إمكانيات وقدرات مالية محدودة وخبرات ضئيلة تمتلكها الدولة اللبنانية، لاحظ أن من الضروري بذل جهود مضاعفة كي يتمكن الجيش من الحصول على سلاح وأعدّة وآليات، وبناء تكن ومنشآت تواكب مرحلة الإستقلال. لم يكن الجيش الفرنسي قد غادر لبنان نهائياً عام 1945. أيقن القائد الجديد أن المهمة تتطلب، كذلك، اهتماماً خاصاً توليه بالمؤسسة العسكرية، الجديدة والمستقلة، المؤسسات الدستورية اللبنانية السابقة لها مراساً وخبرات وأعرافاً وتقاليده، من أجل تشجيعها على تمويل بناء الجيش. انصرف، بادئ بدء، إلى تأهيل معنويات العسكريين وتثبيتها، وبتّ روح العزيمة والوحدة في تنظيمهم، انضباطاً وطاعة للقائد. وغالباً ما كرّر أمام الضباط، في لقاءات دورية معهم، أن القائد ينبغي أن يكون "الرأس"، و"على رأس جنوده كي يصبح المثال". عرف لهم دور الضابط أن يكون:

"- ضابط ميدان (officier de campagne)، قادراً على خوض الحرب دفاعاً عن حدود بلاده وسيادتها واستقلالها.

- ضابط مجتمع (officier de salon)، يتمتع بقواعد النبل واللياقة والخصال الأخلاقية في التعامل مع المجتمع اللبناني.

- ضابط ندوة (officier de cénacle)، مؤهلاً للمحادثة والمحاضرة في مواضيع مختلفة. أن يكون باختصار ضابطاً مثقفاً"¹⁸.

كان قائداً صارماً، حازماً بمقدار ما كان يخاطب عسكريه ببساطة ووضوح. متمسكاً بأصول الانضباط والنظام، متفهم وقريب من ضباطه وجنوده. يستمع إليهم. طبع النقش والزهد والتواضع

¹⁷ - مقابلة خاصة مع الدكتور باسم الجسر.

¹⁸ - مقابلة خاصة مع العميد فرنسوا جينادري.

(esprit de corps) التي توجب على العسكريين،

في قطعهم وأفواجهم، التماسك في ما بينهم والتفافهم بعضاً على بعض. حملته ذلك على إقران التنشئة العسكرية بالتنشئة الإنسانية والاجتماعية التي تتوخى جعل الجندي مواطناً، وقوة لمواطنيه الآخرين الذين لا يشاركونه البرزّة.

لم يكن يتسامح حيال أخطاء اعتقد دائماً أن على العسكري أن لا يفتقرها في الثكنة وخارجها. ليس ثمة ما يبرّر سرقة ارتكبتها عسكري، وكان يواجهها بعقاب رادع، واصفاً إياها بـ"حرام كبير". الأمر نفسه بالنسبة إلى اهتمامه بالعتاد القليل الذي كان يملكه الجيش، فيقول القائد لضباطه وجنوده، محدّراً من العبث أو التفريط به أو إهدار فائدته أو سرقة، إنه من "مال الشعب الذي ينبغي المحافظة عليه"¹⁹. أولى العسكريين عنايته في جيش صغير لم يزد عدد ضباطه عن بضع مئات وجنوده عن آلاف قليلة، ممّا مكّنه من معرفتهم جميعاً والإطلاع على حاجاتهم ومتطلباتهم عن قرب. كان قائداً ومرجعاً للإحتكام إليه، صاحب الكلمة الفصل أياً تكن المشكلة التي كان يواجهها الضابط خصوصاً. سرى انطباع أن الحلّ الذي يقّمه قائد الجيش، سواء كان مكافأة أو عقوبة، يُشعر الضابط أنه حاز الإنصاف والعدالة اللذين يرتجيهما. أولى خطوات بلوغ هذا الهدف أن يرفع شكواه إلى فؤاد شهاب²⁰. وسَم قيادة الجيش بأسلوب عمله. فكان أن طلب وضع عبارة "الأركان تدرس والقائد يقرّر" على باب كل من الشُعَب الأربع في مقرّ الأركان العامة في وزارة الدفاع الوطني. أدرج من ثمّ طريقة عمل الشُعَب من خلال بطاقة قرار تمهّد للأمر الذي يتخذه قائد الجيش. لكل أمر بطاقة قرار تتضمن شرحاً وافياً للمشكلة وتاريخها ومعطياتها وأراء الشُعَب المعنية بالبطاقة، كما سائر الشُعَب لإبداء الرأي، فريئس الأركان، ثم قرار القائد الذي يناقش قبل أن يتخذ أحد خيارات ثلاثة: موافق، غير مقتنع، لا. وهو سيحمل معه أسلوب العمل هذا جزئياً إلى القصر الجمهوري بعد انتخابه رئيساً عام 1958²¹. حينذاك كان القائد قد خُلف وراءه جيشاً استكمل بناءه وتسليحه. سبعة آلاف عسكري يقودهم مئتا ضابط تخرّجوا في المدرسة الحربية، ومعظمهم أجرى دورات تدريبية في الخارج.

في السنوات الأولى، كان الضباط الذين يتخرّجون في المدرسة الحربية في حمص، بعد مدرسة دمشق حتى عام 1932، بضع عشرات بينهم تلامذة ضباط سوريون وفرنسيون. إلى أن انتقلت المدرسة الحربية إلى لبنان في 25 أيلول 1945، فاستقرت لسنة في دير مار أنطونيو في بعبدا، قبل انتقالها مجدداً في 14 تشرين الثاني 1946 إلى ثكنة شكري غانم في الفياضية. اهتم باستشفاء العسكريين وتقديم مساعدات اجتماعية ومنح مدرسية لأولادهم، وكذلك بناء مراكز ترفيه في ثكنهم كبيوت الجندي للرتباء والجنود، ونواد ضباط. وأفاد من إيرادات كان يوفرها صندوق خاص تُجمع فيه مداخيل بيوت الجندي ونوادي الضباط والنادي العسكري المركزي والحمام العسكري المركزي في رأس بيروت الذي كان أنشأه الإنتداب الفرنسي، إلى حسومات على رواتب عسكريين يتعرّضون لعقوبات. في الشهر الأخير من السنة، كان القائد يطلب من الثكن والقطع والأفواج جردة بعديد العسكريين كي يقمّ لأبنائهم هدايا عيدي الميلاد ورأس السنة الجديدة. أنفق من هذا الصندوق على جراحات ملحة خضع لها عسكريون خارج لبنان، نظراً إلى ضآلة إمكانيات المستشفى العسكري المركزي أو المستشفيات الخاصة اللبنانية.

أبرز فؤاد شهاب همّة في حماية الجيش من آفتين وجد أنهما مترابطتان يضرّ تدخلهما بالمؤسسة العسكرية هما السياسة والطائفية. شدّد على أن الرئيس المباشر هو مرجعية العسكري، موازناً بين معايير الكفاية وتوزيع القيادات والوحدات، دونما الإخلال بواقع التركيبة الطائفية الذي كان ينظم

¹⁹ - مقابلة خاصة مع العميد فارس لحد لحد.

²⁰ - مقابلة خاصة مع العميد غابي لحد.

²¹ - مقابلة خاصة مع اللواء أحمد الحاج.

علاقات الطوائف وتقاسم اللبنانيين السلطة والمناصب. كان عليه مواجهة معادلة غير متكافئة: قاعدة الجيش في غالبيتها إسلامية، وقيادته في غالبيتها مسيحية نظراً إلى أن المسلمين إبان حقبة الإنتداب الفرنسي - خلافاً لأقرانهم المسيحيين - كانوا يتحفظون عن الإنتساب إلى المدرسة الحربية. لم يكن "المير فؤاد" - تسمية أطلقها رفاقه القدامى وضباط الرعيل الأول - يشارك في مناسبات اجتماعية ورسمية واحتفالات السفارات. كرّس حياته لمهنته والجيش، ساعياً إلى أن تكون سمعة المؤسسة العسكرية في منزلة قوتها. أن تكون أيضاً مهابة وذات حصانة معنوية. كذلك كان هو. لا اتصال مباشراً بينه وبين الناس على غرار ضباط قوى الأمن، الكثيري الإحتكاك بهم والإقتراب منهم والإنخراط في شؤونهم عبر مخافرها. لكنه، بحسب ما كان يلمس منه ضباطه، لم ير الجيش منعزلاً عن مواطنيه. كان يقول بأن إرساء علاقة كهذه ينبغي ألا تحمل الجيش على المساومة والتساهل في أداء مهمته، وتقليل هيئته، وألا يصطدم بهم خصوصاً.

رسخ بذلك لدى ضباطه من أجل أن يكونوا على صورة القائد، طبيعة مشابهة للتي اتصف هو بها: بسيطاً، متواضعاً، منزوياً، نزيهاً، متقشفاً، من غير التخلي عن واجبه. وغالباً ما علمهم أن يتصرف كل منهم على أنه "سيد" (Seigneur)، ويطلع سلوكه بهذه السمة. حافظ على المواصفات العسكرية التي لزمته ردود فعله، وثبتت ابتعاده عن الحياة الاجتماعية والعامّة. المجتمع العسكري هو الأقرب والأكثر التصاقاً بنمط حياته، وقد عرفه باكراً. ولأنه تفادى الإندماج، وضع باستمرار حدوداً فاصلة بين الحياة الشخصية الغامضة والمقفلة على أسرارها وخصوصياتها، وبين الأدوار والمواقع والمسؤوليات التي يحوطها احترام كامل.

عوّل باستمرار على "الكتاب الأخضر" الذي هو قانون الجيش، و"الكتاب الأزرق" الذي هو التعليمات التطبيقية لقانون الجيش. فأقرن كل مخالفة له بالعقوبة التي كان يعدّها إجراءً زاجراً. كان يسأل تكراراً: "ماذا يقول الكتاب الأزرق؟". ويصرّ على تطبيق أحكامه بحرفيتها. ولأنه تجنّب السياسيين وتمسك برفض تدخلهم في شؤون الجيش أو توسّطهم لعسكريين في مناقلات، آل ذلك إلى رد فعل سلبي على العسكريين أنفسهم بتعريضهم للعقاب من جرّاء طلبهم وساطة.

كان يحرص على تفقّد الثكن والمواقع العسكرية شهرياً، دونما إعلان مسبق بغية مراقبة الضباط والعسكريين في قطعهم وأفواجهم ومراكز تدريبهم، وفي المدرسة الحربية مرة في السنة. يستمع من تلاميذها الضباط، كما من قائدها ومدربيها، إلى مطالبهم واقتراحاتهم واعتراضاتهم في الإعداد والتدريب على القتال واستخدام السلاح، وحاجاتهم إلى إمكانيات وقدرات جديدة، أو إلى تطوير الجانبين التقني والمعرفي فيها. يزور غرف المنامة. في بعض الأحيان، كان يقرأ بصوت عال علامات التلاميذ الضباط أمام قادتهم ومدربيهم ورفاقهم، تشجيعاً أو إحراجاً، لتأكيد متابعتهم ودروسهم وانضباطهم وتدريباتهم والتزامهم الأنظمة والقوانين العسكرية. ثابر كذلك على حضور المناورات العسكرية للقطع والأفواج للتحقق من المستوى الذي بلغه أداء الجيش الذي يقود، وإبداء الملاحظات وتقديم التوجيهات. وهي حال المناورة العسكرية السنوية الكبرى التي تقام على صعيد أسلحة الجيش كلها في حضور القائد. كان يشارك، كذلك، في محاضرات ثقافية وعسكرية في أندية الضباط في بيروت والمناطق. يتقدّم الصفوف، مصغياً ومدوناً آراءه على ورقة صغيرة قبل أن يطلب الكلام ويعقب على المحاضر.

أرسي فؤاد شهاب ما كان قد خبّره عندما تنقل إبان الإنتداب الفرنسي بين المناطق، فعرف اللبنانيين وأمزجتهم وتقاليدهم وأسلوب تفكيرهم، وردود فعلهم وسلوكهم، ونظرتهم إلى السلطات التي تناوبت على حكمهم، قبل الإستقلال وفي ظلّه. وهكذا ولدت بضعة انطباعات أضحت قواعد رئيسية في تقويمه للعلاقة بين الجيش والمواطن، وبينه والسلطة القائمة، لا تلبث أن ترسي مذهبه الاجتماعي لمفهوم الدولة: الحرمان والتخلف، المساواة، التماسك بين الشعب والجيش، العدالة الاجتماعية، ربط

كان يرى الجيش صورة مطابقة للمجتمع، بطوائفه وشرائحه وانتماءاته المختلفة، ويدرك في الوقت نفسه تأثير التطورات والتحوّلات المحيطة بلبنان عليه. في مرحلة صعوده في مواقعه العسكرية، في الثلاثينات، شهد لبنان أحداثاً مهمة تركت لسنوات طويلة أثراً سياسياً واجتماعياً وطائفية وعقائدية، كان أبرزها ولادة أحزاب - وبعضها عملاً سراً - بسبب تحظير نشاطاته - اتخذت وجهاً عسكرياً، فنشأت في كنف ميليشيات منظمة ومدربة على تمارين رياضية، وعلى الخدمة العسكرية للدفاع عن أفكارها وعقيدتها وتيارها وجمهورها: عام 1932 الحزب السوري القومي الإجتماعي، و عام 1936 حزب الوحدة اللبنانية والجبهة القومية التي استمدت آراءها من مناداة يوسف السودا منذ عام 1920 بالقومية اللبنانية وحزب الكتائب. كانت ثمة أحزاب عقائدية أخرى انتظمت قبل سنوات كالحزب الشيعي اللبناني عام 1924. ناهيك بأحزاب عربية عقائدية كعصبة العمل القومي عام 1932، وحزب البعث عام 1945. تزامنت هذه مع بروز تيارات قومية عربية في الدول المجاورة للبنان. في حمأة هذه الفورة، ومنها ما كان ردّ فعل على من تقدّمها، ظلّ فؤاد شهاب في منأى عن هذه الأحزاب، وعمل على تحييد الجيش، في ما بعد، عن التأثير بها.

- 3 -

على غرار رفضه تدخّل السياسيين في شؤونهم، قاده تشدّده في منع انخراط حزبيين في الجيش إلى تحظير انتساب عسكريين إلى أحزاب. أخضع مخالفة التحظير لعقوبات صارمة انبثقت من قانون الجيش، أو من إجراءات مماثلة كالتوجيهات الصادرة عن الأركان العامة ونشاطات الشعبة الثانية في مراقبة العسكريين، والتحقق من مدى التزامهم الانضباط. ساوى في خشيته بين الطائفية والسياسة والانتماء العقائدي، واعتبر تسللها إلى عقول الجنود ومشاعرهم مبرراً لتهديد وحدة الجيش وتماسكه والولاء له. أبدى بذلك اهتماماً خاصاً بالقضاء العسكري بأن عدّه المؤسسة المولجة مراقبة الانضباط والحزم والصرامة في الإمتثال للقوانين العسكرية، ناهيك بكونه ضامناً لحق مزدوج: عدم تعرّض العسكريين لاعتداء المدنيين عليهم، وتوفير الملاذ والحماية لهؤلاء الأخيرين من إقدام العسكريين على استغلال نفوذهم في المؤسسة التي ينتسبون إليها. فأسمى القضاء العسكري أحد إدارات الجيش المكلفة التحقيق والإستقصاء والمحاكمة والإدانة وفرض الأحكام والعدالة والإقتصاص.

لبلوغ هذه الأهداف، كان على فؤاد شهاب التيقّن من ضرورة تعيين قاض مدني في المحكمة العسكرية التي كانت قد ضمّت منذ تأسس الجيش عام 1945 - إلى القاضي المدني - قاضيين عسكريين هما ضابطان، يرئسها أحدهما ويكون برتبة عالية. كان قد اعتاد، استباقاً لانتدابه القاضي المدني إلى المحكمة العسكرية، الإيعاز إلى الشعبة الثانية جمع المعلومات الوافية عنه للتأكد من سلوكه وثقافته وعلاقاته المهنية والاجتماعية، وخبرته في إصدار الأحكام ومعايير العدالة. سعى، بانتظام كذلك، إلى استقبال القاضي المدني مرة في السنة في لقاء منفرد للإطلاع منه على ملفات القضاء العسكري والمشكلات التي تواجهها المحكمة العسكرية وحاجاتها القانونية والإجرائية. في الإجتماع السنوي، كان قائد الجيش يحرص على تدوين ملاحظات محدّثة في دفتر خاص للمساعدة على تذليل العقبات.

أدرك باكراً أن الملفات العالقة أمام التحقيق العسكري، ثم في المحكمة العسكرية، متشعبة كونها تطاول عسكريين - يكون بينهم أحياناً ضباط كبار - ومدنيين. كان يقتضي ذلك مقارنة الملفات تلك

22. ومن غير أن يتدخل في الملفات العالقة أمام المحكمة العسكرية، ظلّ قائد الجيش على علم مستمر بها، ويجيب مستفسريه: "لنا عيون وآذان، ونعرف كل شيء" 23.

22 - مقابلة خاصة مع الوزير عثمان الدنا الذي يروي، أيام كان قاضياً مدنياً في المحكمة العسكرية (1952 - 1958)، إنه ارتأى بعد درسه ملف متهم مدني إدانته لاستيفاء فعله عناصر الجريمة. لم يجاريه في رأيه، في أثناء المذاكرة، القاضيان العسكريان الآخران، الرئيس والمستشار، اللذان رغبا في تبرئته. وحيال إصراره على موقفه أرجىء اتخاذ الحكم أسبوعين. بعد أيام تلقى مكالمة هاتفية من رئيس الشعبة الثانية المقدم أنطون سعد يطلب مقابلته على عجل، ويبلغ إليه أن جهازه مهتم بذلك المتهم ويحثّ تبرئته. لم يتفقا، وتمسك القاضي المدني بوجهة نظره في حال صدر حكم معاكس، وأنه سيدون مخالفته. عند التنام المحكمة العسكرية مجدداً فوجيء عثمان الدنا بالقاضيين العسكريين بنضمان إلى رأيه في الحكم على المتهم. ولم يكتشف حقيقة موقفهما إلا متأخراً، بعد أشهر، في الموعد السنوي مع قائد الجيش الذي كان قد عرف بأمر تدخل الشعبة الثانية لديه، قائلاً لأنطون سعد: "اتركه يعمل".

23 - المصدر نفسه.